بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

بقلم الدكتور عبد القادر فيدوح

ترجع صلتي بديوان طرفة بن العبد إلى أكثر من عشرين سنة خلت، حيث كُتبت مُقدماً على اختيار موضوع في الدراسات العليا لِنيل درجة الماجستير، في جامعة وهران، فاقتُرح عليٌّ من أكُثر له في نمسي كل مودة وتقدير، صنعي، "عبد الله المشي" حينذاك، ديوان طرفة بن العبد لَا أنثوله بالدراسة. وبعد قِرائتي الأولى للديوان بهرن، بما احتوى عليه من أشعار تقاد ترقي إلى مستوى الفكر الفلسفي، فاعتبرته نادرة زاهرة من نوادر الشعر الجاهلي تستدعي التوقف عندها، وتأتي إلى الدراسة فيها. فاطمته على أشعار لم أطلع عليها عند الشعراء الآخرين، فإذا هو بحر مَوَّاج، لا يدركه إلا من أشاط بأشعار الحكماء، وأحسب أن القارئ سيشارك الراي في امتناع شعر طرفة بن العبد من خلال هذا الديوان الذي قد يجد فيه شرعنة المفكر والتدوينة.

ويشتهي الأقدار بعد مرور كل هذه الفترة الزمنية أن أجد نمسي في البحر، عضواً ضمن هيئة التدريس في جامعتيه الماجدة، وخلال وجود صادف فعاليات متتالية طرفة بن العبد، والذي أشرف على تنظيمه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وحينذاك، كنت قد شرحت بالإعلان المحاضرة الافتتاحية، حضرتها شخصيات بارزة، ترأسها سعادة وزير شؤون مجلس الوزراء والإعلام رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وأضحى لي حينها أن هذه المحاضرة ينبغي أن تكون صيغة خاصة تستحق منها أن أبدي اقتراح إعادة طبع الديوان، على الرغم من طبعه في سوريا من مجمع اللغة العربية، وبكمية محدودة سرعان ما
نفذت، عدا الطبعات الأخرى غير المحققة. وقد حرصت في أثناء تدخلها على إثارة هذه الفكرة، على أمل أن يعالج الموضوع مستقبلاً بجدية مع من يعتني الأمر أكثر، فما كان من سعادة الوزير الأستاذ الفاضل محمد إبراهيم المطووع إلا أن رحب بالفكرة، فتحول هذا الاقتراح بفضل رجارات إدارة الثقافة والفنون بالجامعة، إلى إرادة، فعزمت، فعمل، ووضع موضوع التنفيذ، وظل التزامًا قطعوا على أنفسهم، واستجابوا لضرورة حضارية استشعرها قيمتها، ولبوا نداء الواجب في إعادة طب ديوان، فتحقق هذا الفرض السامي لإخراج هذا الديوان بأبى حلة. لذا أكن لهم في نفسي كل مودة وتقدير بسيفهم المستديم.

وأذا أسدى جزيل الشكر التواصل إلى كل هؤلاء بإعادة طب ديوان بهذه الجودة والنضارة، أثم جهود مجمع اللغة العربية وبخصة المحقدين: درية الخطيب، ولفتي الصقال الذين قاما بتحقيق هذا الديوان المتميز الذي تعزه وذبدوه، وهو جهد محفوظ لصاحبهما ما بدلاً من عناية فائقة وروح عالية بوجود التحقيقات، واتتم التدقيقات، وتبع النهارس، وقد أحسننا صناعًا بإنجازهما هذا، حيث عملنا بذوب على جمع «ما عثرا عليه في بطن الكتب والدواوين والجماعات والترانيمات وكتب اللغة والأدب» من أبيات ومنتهبات أو مقاطع كانت صفة للديوان الذي شرحه الأعلم الشهير. كما أضافنا في هذه الطبعة الثانية تسع أبيات وشطرًا واحداً وهو ما عثرا عليه بعد ذلك.

وبعد هذا كله، فلن الأمل أن نجد في هذا الديوان لمعاناً من فوائد تروي المطهف الظلمان بنيلة ماء بارق والاستفادة من ينبوعه كلهما علّ متدفق من سيلجة جريعة، ليبدع طبلاً لجرعات أخر. ولا غرو في ذلك ما دام للشعراء مقام الحكم في هذا الديوان. يعزه الشعر، والفكر والقيم الفاضلة.

ولكن كنت لا أعتمد في هذا التمديم إلا أن يفهم القراء مكانة هذا النابغة المحقق لشهره الطائرة، ودون أن تصرّف لحياته. فلمست بناس ما روي في الحديث الذي ورد في أديب الفقه والشعر وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال: بلغني أن عاشية سائل: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا. إلا ظرفًا حيث يقول:

وسأليك بالأخبار من لم تزود

-ب-
وفي هذا إشارة إلى معظم فضائله التي وجدت مكانها في الإسلام فيما بعد، وكان الدارسون والنقاد يقدمونه على كثير من الشعراء ما أحسوا فيه من الإباء والغافة والفتوى. ويجدر بنا هنا أن نقف إلى ما قاله الجاحظ في البيان والتبيان من «أنه ليس في الأرض أروع من تفظينة بن العبد، ومهمه حاز طرف من رفعة الحسبة والنسب، ونسبة البكري من نسب الأب، والتعلبجي من نسب الأم، جاماً بين حينين عريقين وهو ما ينبع عن قوله:

وتفررنا من ابن وائل
وبي تغلب ضرر أبي البهم

مهما افتخر بهذا النسب الذي نال مكانة مرموقة في التاريخ العربي، فإن شموخه به زاده بصيرة لأن يرى نفسه من متقدمي النفوذ وأسباقهم إلى الإجادة في معظم إبداعه الفني الذي فاز به معظم الشعراء، وعكس عقلية كبيرة نافذة على الرغم من صغر سنه، امتناعاً يقول

أخته الخرطب الشاعرة في رثاؤه:

فلمما توفها استوى سيداً ضخماً
فجهمنا به لما رجعنا إيةه

ولكن أن تمود إلى أمهات الكتب تطلع على سعة شهرته والإحاطة بشيء من رحلاته التي قدّرت له هذا العمر القصير بهذا الشعر الرصين.

وإذا كان ابن سلام قد وضعه في الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرش، وعليه بن عبيد، وعدي بن زيد، فليس من شك في أن السبب يرجع إلى قلة ما وصلها من شعره، وهو ما صرّح به في بداية حديثه عن الطبقة الرابعة بأنهم أربعاً رثرَف خول شعراء، موضعهم في الأولاء، وإنما أخلَّ بهم فئة شعرهم بأيدي الرواة. هذا فضلاً عن شهرته بمعلقته التي اعتبرها طه حسَّن من أحكم الشعر وأعذبه.

لست ببالغ مبلغ إظهار مكانة طرفة بالقدر الذي رواه الرواة حيث وجدوا فيه شخصية

- ج -
جذابة لحداثة سنة، ولكن، حسبك أيها القارئ من الشاعر، وانت تقرأ هذا الديوان، أن تعرف على أنه شاعر مفكّر، يشعر حين تطلع شعره أنك تقف إلى شعر ينضب بألوان الأزهار، وسلامة الذوق، وحسن التيسير في إيضاح الصور. وبحكسبك مني، أيضاً. أنت ترى منزلته من نفسه حين قمت ببحث مفصل طبع في كتاب: ألفية الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن المبدع؛ مؤسسة الأيام في دولة البحرين سنة 1988 م. كنت قد أثبت في هذا البحث أن طرفة ابن العبد واحد من الشعراء المقدرين الذين عبروا عن عواطفهم وأفكارهم، فكان ذلك بمثابة: «نزاعات فكرية»، أو ما يمكن تسميتها بـ «المثالية الخلقية»، في نظرته للإنسان. وما ينبغي أن يكون عليه، في شعر علقته به النفسوس كما في قوله:

إذا كنت في حاجة مرسلا
فارس حكيمة ولا توصـه
أو قوله:
فلا ناصح منك يوما دنا
فناش عينا ولا تقصفه
فشار لبيبنا ولا تعسه

ولك أن تتأمل في قراءة هذا الشعر لتجد التعمق في مستوى التفكير السليم، والوعي الأخلاقي الذي ميز شعره على نحو قوله بشأن تهذيب العقل والتفكير السليم:

إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تقل
وانت عم لم تدر كيف تقول

على هذا التحويل، كان شعره قدوة: في سداد الرأي، وصفاء النفس، ونقاء الضمير. وفي هذا أيضاً - أحد السبل المؤدي إلى إدراك قيمة التأمل المستمدة من ضمير الوجدان الأخلاقي بدافع الفطرة، وهو ما عبر عنه الفلسفة الإسلامية - فيما بعد - بـ «أحكام العقل النظري».
ولا إخلاص القاريء بعد هذا كله إلاً قد فهم الفائدة من وراء طبع هذا الديوان تقديرًا للمستوى الفكري، وإظهارًا للقيم الجمالية في شعره وما أكثرها وافها وقفا في النفس.
والإذا كان لا بد من قول حق في هذا المقام فهو إسهام الشكر، والثناء الجميل إلى مقام المشرفين على إدارة الثقافة والفنون على تلقّبهم إلى إعادة طبع هذا الديوان بمثل الصخر.
والاعتزاز بهذا الشاعر العظيم. فهنئاً لدولة البحرين على إعادة الاعتبار لشاعرها الفحل
فتى الفكر، فتى الاعتبار في الوعد والوعيد، بظهور هذا الديوان بصيغته السليمة، وعلى
الشكل الذي يليق، ملبياً حاجة نشء الجيل الحاضر، وتستثير به قوافل الدلجين، ويتلقاه
المذوقون، كما يتلقى الظلمان الماء النمير بنحلة راوية. والله الموفق.

المتى: 1420 هـ